

أضواء البيان

@ 419 اعلم أولاً أن لفظ (ما كان) يدل على النفي ، فتارة يدل ذلك النفي من جهة المعنى على الزجر والردع ، كقوله تعالى : { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ دُونِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ } . وتارة يدل على التعجيز ، كقوله تعالى : { وَاللَّهِ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ } . وَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدُبًا آثِقًا ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا } . وتارة يدل على التنزيه ، كقوله هنا : { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ } وقد أعقبه بقوله { سُبْحَانَ اللَّهِ } أي تنزيهاً له عن اتخاذ الولد وكل ما لا يليق بكماله وجلاله .

فقوله { مَا كَانَ لِلَّهِ } بمعنى ما يصح ولا يتأتى ولا يتصور في حقه جل وعلا أن يتخذ ولداً ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً . والآية كقوله تعالى : { وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } . وفي هذه الآية الرد البالغ على النصارى الذين زعموا المحال في قولهم (عيسى ابن ا) وما نزه عنه جل وعلا نفسه هنا من الولد المزعوم كذباً كعيسى نزه عنه نفسه في مواضع أخر ، كقوله تعالى : { إِنْ زَمَّامَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ } . وفي قوله { إِنْ زَمَّامَا اللَّهُ إِِلَاهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ } . والآيات الدالة على مثل ذلك كثيرة ، كقوله تعالى : { وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا } . وَتَخَرَّصُوا الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا } إلى غير ذلك من الآيات كما تقدم مستوفى في سورة (الكهف) . وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا } أي أراد قضاءه ، بدليل قوله : { إِنْ زَمَّامَا قَوْلُنَا لَشِدَّةٍ إِذَا أَرَادَ نَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ، وقوله تعالى : { إِنْ زَمَّامَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } وحذف فعل الإرادة لدلالة المقام عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب ، ومن أمثلته في القرآن قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ } ، أي إذا أردتم القيام إليها ، وقوله تعالى : { فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَغِزْ بِاللِّسَانِ الرَّجِيمِ } أي إذا أردت قراءة القرآن ، كما تقدم مستوفى . .

وقوله تعالى في الآية التي نحن بصددھا : { مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ
وَلَدٍ } زيدت فيه لفظة (من) قبل المفعول به لتأكيد العموم . وقد تقرر في الأصول أن
النكرة في سياق النفي